

## الأصناف والحرف الإسلامية

للدكتور عبد العزيز الدوري

بجدة ما نشر في العدد الماضي

أما كوردانسكي وكورولو فيرون أن اندماج الفتوة بالثقافات حصل في القرن الثالث عشر في نظام (أخيان روم) وأن الأخية ظهرها في الأناضول بعد الفتح المئولى مباشرة في فترة فوضى واضطراب بعد أن دمر الفول الإدارة السلجوقية دون تعويض . فظهر الأخية كؤسسة قوية واسعة لها الرعية والقدرة على التنظيم ، وانتشروا بسرعة في الأرياف والمدن ، وجملوا «التكافل والكرم» دستورهم وطبقة أصحاب الحرف أساسهم الاجتماعي « وقتل الطغاة وسنائهم » من واجباتهم

وبلاحظ أن أعضاء كل جمعية من جمعيات الأخية كانوا أصحاب حرفة واحدة . ولكن حركتهم لم تكن مجرد تنظيم لأصحاب الحرفة الواحدة ، بل جملوا واجبههم حفظ العدل ومنع الظلم وإيقاف الظالم عند حده واتباع قانون ديني وأخلاق وتنفيذ واجبات عسكرية إن دعت الحاجة للدفاع عن حقوقهم . وكانت العضوية مفتوحة للمسلمين وغيرهم وهكذا نمت في حركة الأخية (حسب هذا الرأي) اتحاد الثقافة والفتوة والطريقة الصوفية

ولكنني أريد أن أبين أن هذه افتراضات تحتاج إلى بحوث جديدة . ففظرية يشتر معكوسة . فالتكافل الذي أدى للفتوة بدأ لدى العيارين والشطار أسلاف فتية الناصر لدين الله . وكان بين الطبقة العامة وعلى صلة سيئة بالحكومة من قبل جماعة منحة في مهنها وفي سلوكها . ثم تطورت الحركة بعد أن تأثرت بوضوح بالصوفية وسار لها قانون أخلاق حسن . ولم تعترف بها الحكومة إلا في خلافة الناصر حين أكد على الناحية العسكرية فيها . وهذه الناحية تكونت نتيجة اضطراب الإدارة وسيطرة الأجانب في العراق . وسارت الحركة أرسقراطية في خلافة الناصر ثم سارت حركة العامة بعد الفتح المئولى . كما أن القوضى مسؤولة عن تكافل الحرف وعن اهتمامها بحماية نفسها

وكان الجهاد في الأناضول والحرب على الحدود الإسلامية البيزنطية خير دافع لامتزاج ثقافات الفتوة بالبسادي الروحية الصوفية وبقاليد الحرفة

نم إن ظهور بعض البدع والتساهل في المبادئ الدينية كان وانحما في الأناضول للضرورات الثقافية والعسكرية على الحدود . ومع أن ظهور العثمانية أفقد الأخية كثيرا من سلطاتهم وتقوؤهم وأدى إلى تخليهم عن فعاليتهم السياسية والعسكرية إلا أنهم حافظوا على التمايل الروحية والأخلاقية إلى الأخير

ولا بد هنا من تسجيل ملاحظات الملم جودت لقيمتها ولأنها تاتي ضوءاً على رأينا إذ يقول : « فأما الفتوة فهي عمدة إسلامية ومدنية عامة لجميع المسالك الصناعية والعسكرية والتصوفية والأدبية والتعليمية ليست مختصة بمسلك أو طريقة » وهو هنا يتحدث عن الفهوم الأخير الذي أشرت إليه

ويذكر في محل آخر أن الفتوة « تفيد معنى السباحة الصناعية » ويبين أن : احتياج الصناع إلى الاتحاد محافظة لحقوقهم وأروهم ضد الجسارة والأقرباء من بواعث تأسيس هذه الهيئات . وأخيرا بنى أبة سلة للفترة الباطنية والإسهاميلية ويأت بشواهد تنفيها

ويستطرد إلى « أن الفتية المذكورين في صحائف التاريخ والأشعار وفي الاستهال الجاري ليدوا كلهم من هذا الصنف بل بعضهم . فبعض الرجال المتمسكين بالفتوة العسكرية والشجاعة والرجولية محرومون من سمة الجود والكرم » وهم العيارون والشطار بالربية » وهو بذلك يؤيد افتراضنا الأول . وهكذا نتوصل إلى شكل الثقافة المستقرة بشماثرها المنظمة . فكل ثقافة دستور فيها مادتها وشماثرها وقد وصلت بعض هذه الدساتير من القرن الرابع عشر الميلادي وما يليه . وقبل الدخول في التفاصيل هذه نبين أن هذه الشماثر فيها طابع الاستمرار والمحافظة . فاللباس الذي ذكرنا مع إحلال السروال محل اللتزر أحيانا ، والماء الملح محل اللبنيذ ، والتعاون المطلق ، وفتح الباب لغير المسلمين ، ومكافحة العمى والظلم بقيت ، كما أننا نرى في بعض الحالات مهادنا للحرف تظهر فيه روائع بضائرها كما كان يحصل في بغداد في أواخر أيام

ولدينا بعض الأوصاف للثقافات الإسلامية. منها وصف السامع ابن بطوطة لحركة الأخية والفتيان في الأناضول. يقول «والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضا. وهم (الأخية والفتيان) يجمعيم البلاد التركية الرومانية في كل بلد ومدينة وقريبة ولا يوجد في المنها مشاهم أشد احتفالا بالفره من الناس وأسرع إلى إتمامهم الطمام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم أهل من الشر. ويبين (الأخى) زاوية ويجعل فيها الفرس والسرجه»

ويقول «الفتيان الأخية كلهم بالأسلحة ولأهل كل صناعة (الأعلام) والبوقات و(العابول) و (الأنفار) وبعضهم يخافون بعضا ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشككة»

ويقول «ومن موائد هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان فالأخى هو الحاكم وهو ركب الوارد ويكـوه ويحسن إليه هل قدره ، وترتيبه في أمره ونهيه ور كويه ترتيب الملوك»

ونفذت بمد ابن بطوطة إلى سامخ تركى هو (أواه جلي) الذى تحدث عن الأصناف بناء على طلب السلطان في أوائل القرن السابع عشر. ووصفه أول وصف كامل لثقافات مدينة إسلامية

فبعد أن يصف (فتوت تامة) - كتاب الفتوة بتعاليمه وأشاطيره ، يذكر تركيب الحرفة من (الشيخ) (اللقب) والجواريس والأوسطة (الأستاذ) ثم (الشاكرد) أو (المبتدى) أما الصانع فلا ذكر له

ثم يمدد جميع الأصناف وحواليتهم وشيوخهم. ولا مجال لوصف الأصناف وهي (١٠٠١ صنف) ويذكر أن الأصناف تنظم عرضا عاما (بهيشة استعراض) مرة واحدة سنويا . ويبدأ الموكب وقت الفجر ويستمر في سيره طول النهار حتى للغروب. وتتم الأصناف بيت قاضى اسطنبول لأنه صاحب السلطة لتفتيش جميع الأوزان والمقاييس والأصناف ، ومن التقاليد أن ستهدى الأصناف إلى القاضى نماذجهم التى عرضوها ولكن بعضها كان يخفى ذلك . ثم تسير الأصناف إلى مملاتها وأوانها وتتوقف كل تجارة وحرفة لثلاثة أيام بمناسبة الاستعراض . وكانت تعلق

للمسامين ، حيث كانت الأصناف تقدم في موكب حافل ، كل حرفة تحتفى بدموض اصنافها في موكب يستمر طول اليوم وإن دققنا في دساتير الثقافات نجدها تتكون عادة من ثلاثة أقسام - الأول يتصل بأصل الحرفة ومتامرات شيخها المؤسس وتمطى سلسلة تنشئة - مثلا - الله علم جبريل - جبريل علم محمد - محمد علم على - على علم سلمان الفارسى - سلمان علم الأبيار وهم حاة أهل الحرف - الأبيار علموا الفروع وهم الحاة الثانويون للشعب المختلفة في الحرفة الواحدة - الفروع علموا بدورهم رؤساء الأصناف

القسم الثانى - يحوى طدة قائمة بأسماء الأبيار والفروع لمختلف الحرف . وهم عادة أبطال من القرآن والتوراة والتاريخ الإسلامى - مثلا - آدم حامى الفلاحين والخبازين - شيت حامى الحياك والخياطين - نوح حامى النجارين - وداود حامى الحدادين والصياع - إبراهيم حامى الطباقين - وإسماعيل حامى صناع الأسلحة

القسم الثالث - يحوى التعاليم التثقيف المبتدئين وأسئلة وأجوبتها . ومع اختلاف التفاصيل الجزئية في تنظيم الثقافات إلا أن الأسس واحدة

تشكون كل نقابة من الأسانذة (مفرد . أوسطة أو معلم) وهم يشكون القسم الرئيسى من الثقافات ويليها (الخليفة أو التلم) ثم (الصانع) ثم (المبتدى) وفي بعض الثقافات يفتل دور الصانع ودور الخليفة ، ويكون الانتقال من مبتدى إلى أوسطى . ويرأس النقابة (الشيخ) وهو موجود في جميع الأصناف. وقد يكون له مساعد يدعى (اللقب) منزلته منزلة الوزير من السلطان

ولا يكون الانتقال من مبتدى إلى الدرجة التالية في وقت محدود بل يعتمد ذلك على الأستاذ . وتختلف الحالات في تطبيق دستور النقابة، فمرة ينسب ذلك إلى الشيخ ومرة ينسب إليه بمساعدة هيئة الستين من الأسانذة أو الاختيارية

وتلعب حفلة الانهاء أو الترقية في الحرفة دورا مهما، وتتميز بإرتداء بعض الملابس كالسروال والشد (أو شد الحزام) والترنر أو الصدرية

والحصر للسكان (٥٠٠) معاونة لحسن أخا المحرق دكانه (٣٥٠).  
 اقراءة البخارى الشريب والشفاء (٣٥٠). اجرة الحاكم للنظارة  
 بأمرر الحلاجين (٢٥٠). اجرة التولية (رئاسة اللونجة ١٢٠٠)  
 كما يصرف من صندوق الحرفة على العجزة من أهلها الملويين  
 والمصدر الثالث بحث إلياس قدسى وهو مسيحي سوري  
 قدمه إلى مؤتمر المسقشرين ١٨٨٣ (الجلسة السادسة) عن  
 نقابات دمشق سنة ١٨٨٢. ينظرنا قدسى أن كافة حرف المدينة  
 لها رئيس أعظم وهو (شيخ المشايخ) وأن منصبه ورأى في  
 مائة (المجلد) وأنه لا يمكن إقالته أو استبداله. ويذكر أن  
 أسلافه كانت تعين المشايخ لأكثر من مئتي حرفه وتأسس ونهض  
 وتنافس وتفضل في كل مسألة ونحسم كل مشكلة ولديهم بتقاضى  
 الجميع. وكانت سلطانه تمتد إلى حق المحكم بالموت. وعلى كل فقد  
 بقيت لديه سلطة سجن رجال النقابة أو جلداهم لوقت طويل

ويتمتع شيخ المشايخ على وقف ورأى ولكن سلطاته انقصت  
 بعد التنظيمات من زمن السلطان عبد الحميد « فقال تسلط شيخ  
 المشايخ إلى حد غير متناه حتى يسوغ القول أنه فدا محصورا  
 بالتصديق على شيخ حرفه من الحرف بعد أن ينتخبه مملوها »  
 وحتى في هذه الحالة كان تصديق الحكومة ضروريا فكان الهمض  
 خصوصا غير المسلمين يكفى بهذا دون الرجوع إليه. وكان هذا  
 الشيخ طالما في زمن قدسى ولكنه يجهد شؤون الأستان

ونظرا لكثرة واجبات شيخ المشايخ لم يكن باستطاعته تنفيذ  
 كافة أعماله العامة، فكان يعين موظفا يدعى النقيب وهو يمثل  
 شيخ المشايخ في الاجتماعات العمومية للحرف أو في حفلات  
 الترقية، وكان له عدة نقباء عند ما كانت وظيفته مهمة ولكن في  
 زمن قدسى اكتفى بواحد وكان طرفا بشؤون الحرف بصورة طيبة  
 ولكل حرفه شيخ ينتخبه شيوخ الكار بمن اشتهر بحسن  
 الأخلاق والطوية وامتاز بمعرفة أصول الحرفة، ولا يشترط فيه  
 كونه كبير سنا أو كونه من الشيوخ بل يكفى أن يكون ماهرا  
 محترما يستطعم تمثيل النقابة أمام السلطات. ومع أن الشيعة  
 كانت تنقل بالإرث في بعض الحرف إلا أن ذلك يستعزم موافقة

أهمية على الأقدمية في السير، ويصف (أوليا جاي) نزاعا وقع  
 بين القضاة وبين تجار مصر حول الأسبقية حتى صدر الحكم  
 من السلطان في جانب التجار

ولدينا وصف آخر لتشكيلات الصناعة في سيروز (روميل  
 سنة ١٢٥٠ هـ) فيذكر ابن قاضي البلدة أن لكل صنف سوقا  
 مختصة واسكل حرفه رئيسا يسمى (أخى بابا) أو (كهيا) أو  
 (متولى). وإدارة شؤون الحرف بيد الرؤساء أو الأخية تعاونهم  
 هيئة إدارة (أهل اللونجة) من خمسة أعضاء ينتخبون من  
 أساتذة الحرفة. ويندرج المنتهون إلى الحرفة من (بماق) اللبدي  
 وسنه أقل من عشر سنين، وبعد سنين يتقدم ويصبح (جراق)  
 وبعد ثلاث سنين يصبح (خليفة) وبعد ثلاث أخرى يصبح  
 (أوسطة). ويوجد مجلس أعلى لكل الحرف يمثل الحرف برؤسائها  
 وهؤلاء ينتخبون رئيسا عاما (كهيا الراش)

ويشرف الأخي على شؤون الحرفة الإدارية والمالية ويحل  
 المنازعات ويرأس هيئة الإدارة ويجرى الراسم المنصوصة الأستاذ  
 والخليفة والجراق ويرأس الحفلات ويقوم بالنظارة الدائمة على  
 أحوال الأستان، أما المجلس الكبير فيقوم بالإشراف على التوليين  
 كافة ويفصل النزاع بين أهل الحرف ويحسم المشكلات التي لم يقدر  
 المتولون على حلها ويسوى المصالح دون مداخلة الحكومة ويرض  
 لدى الحكومة ما يمس حقوق أهل الصناعات ويرعى حقوق  
 أهل الصناعة

واسكل حرفه صندوق وارداته من بدل الإيجارات  
 وأرباح الأموال الوقوفة والوسايا ورسوم الانتهاء والتبرعات من  
 أهل الخير أو رجال الحرف. وينفق وارداته على التعميرات والرسوم  
 ومعاونة فقراء أهل الحرفة وتقديم المونة للملاء والجهات الطيبة.  
 وكمثل يوضح ذلك نذكر قائمة مصاريف الحلاجين سنة ١٢٩٠،  
 بسيروز وفيها ما يلي :-

فحم لفقراء البلدة وأهل الصناعة (٦٨٠ قرشا). خبز  
 للفقراء في رمضان (١٢٠٠). اجرة تدارى فقراء أهل الحرف  
 وباللأنهم (٣٥٠). للتجهيز والتكفين (١٧٠). للصدقات  
 اليومية (١٨٠٠). أعلى مكاتب الصبيان (١٨٠٠). القهر

الحرفة ( شيخ الطائفة ) وله مجلس من الختارين يدعوهم بمثابة محكمة للثقافة . ويرفع المبتدى إلى درجة أوسطه وأسا دون وجود مرتبة صانع . وهناك نوع من التأمين ضد البطالة والمرضى يتعاون في تحقيقه أعضاء الحرفة . وإن انطرق هنا إلى ( النقابات الوضعية ) للنشالين واللمرصر وقطاع الطارق؛ وهذه وإن لم تكن جزءا من نقابات الحرف إلا أنها أثرت في الخط من سمها

لقد تزعزعت هذه التشكيلات أمام الهزة الأوروبية وزالت أو تضاعلت أمام الموجة الجديدة والتنظيمات المماثلة الحديثة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

وبما صر نستخلص ما يلي :-

- ١ - أن النقابات الإسلامية نشأت من الشعب وكانت استجابة لحاجات العمال أنفسهم وكان موقفها أحيانا غير ودي أو عدائي للحكم ٢ - ثم نلاحظ أن أصحاب العمل من أستاذ وصانع ومبتدى يكونون طبقة اجتماعية واحدة فيها مجال التقدم لسكل فرد دون تناحر ودون الانقسام الذي ولدته رأسمالية أوروبا . وهذا تطور طبيعي لظروف المجتمع الإسلامي الاقتصادية والاجتماعية
  - ٣ - تضم النقابات الإسلامية أفرادا من مختلف الطوائف في جو من التسامح الاجتماعي والفكرى عكس ما حصل في الغرب
  - ٤ - للنقابات الإسلامية حياة روحية ومثل خلقية فهي قوة تهذيبية مهنية في نفس الوقت ولم تقتصر على المهنة وهذه ناحية مهمة لارتباطها في النقابات الأوربية . ولكن النقابات الإسلامية لم تصل إلى الأهمية السياسية للنقابات في الغرب وإن كانت لها أدوار هامة أحيانا
- وأخيرا يجب أن نذكر أن روح التكافل والانجسام في المؤسسات العلمية الراقية أو المدارس جعل الطلبة والأساتذة يكونون نقابة . ولهم بعض المراسم المشتركة مع النقابات مثل اللباس الخاص ( الروب ) والإجازة . وتشابه الدرجات من تلميذ إلى مبدئ إلى مدرس إلى أستاذ
- هذا ما أمكن مرصه بإيجاز

شيوخ الكار وهذا يبقى سنة الانتخاب . ويبقى في منصبه مدى الحياة ما لم يصدر منه ما يوجب إيداله بسواه

وبلاحظ قدسى أن الانتخاب يجري من قبل الأساتذة المتقدمين يجتمعون ويتذاكرون ، فإن انفقروا على شخص انتخب ( وإلا عين شيخ المشايخ شيخا ) ثم يصادق شيخ المشايخ عابه في حفلة خاصة

أما واجبات الشيخ فتتلخص في : أن يمقد مجالس لصالح الحرفة بترأسها ويسهر على حفظ ارتباط ( الكار ) ، ويقا من أنى بإخلال في حق المنفعة . وكثيرا ما يكون مكلفا بإيجاد شغل للفقلة . فيوصى بهم ( المعلمين ) وله رحمة أن ( يشد ) بالكار ( المبتدئين الساهرين ) فيصرون ( صناعا ) أو ( معلمين ) ومعه تكون ( مخايرة الحكومة ) فيما يتعلق بحرفته

ويساعد كل شيخ في الحرفة ( شاويش ) يقوم مقام النقيب للشيخ ولكنه ينتخب من قبل الكار . ولم تكن له سلطة خاصة . بل كان رسول الشيخ يبلغ أوامره ويمثله وهذا المنصب قد يمخرنا قدسى أن ( المبتدى ) أو الأجير - وهو الولد الحديث السن الداخلى إلى الحرفة - يشغل عدة سنين دون معاش أو أجرة ، ولكن البعض كان يستلم أجرا أسبوعيا زهيدا يسمى جمية . وعندما يبدع المبتدى في مهنته يرقى إلى مرتبة صانع وأحيانا إلى مرتبة أستاذ في نفس الوقت

وكان الصناع في زمن قدسى يشكون الممود الفقري للثقافة وهم يحفظون مستوى الصناعة وأسرارها

ويصف قدسى بتفصيل حفلات الإجازة ، أو الشد . وكانت تجرى بحضور شيخ الحرفة وأسائذتها ونقيب الحرف والعاويش ويتولى الشاويش والنقيب عملية الشد وتؤخذ المهود على المصنوع بالاحتفاظ على أسرار الحرفة والصنع الجيد وأن لا يخون الكار ولا ينش الصدمة بشئ . ثم يتساءل قدسى في الأخير عن التشابه بين مراسم الحرف وبين الماسونية الحرة في أوروبا وعن شبيهه ونضيف بعض ملاحظات عن نقابات مصر في نفس الفترة . فهنا نجد الحرف تحت إشراف رئيس البوليس ويدهي رئيس